

□ الترجمة و الثقافة

محمد بن شريف بن دالي حسين

- قسم للترجمة - جامعة الجزائر

إن الترجمة كانت و لا زالت همزة وصل بين الثقافات، و الثقافة هي بإيجاز مجموعة عناصر الخاصة بجماعة بشرية معينة، و تنطوي على الإعتقادات و العادات و اللغة و المعرفة التقنية كما تشتمل على التقاليد و الدين، إلخ أمّا اللغة فهي مؤشر سلوكي اجتماعي يشكل بؤرة النشاطات الفاعلة التي تلتقي فيها و تشع منها سلوكيات الناس عندما يتفاعلون مع بعضهم بعضا في المجتمع البشري الذي يعيشون فيه.

و ليست الترجمة عملية نقل لغوي بقدر ما هي عملية نقل ثقافي، فهي لا تتمثل في البحث عن تطابقات و توافقات (correspondances)، بل تتمثل في البحث عن معادلات (équivalence) . فنحن ننقل معان، لا نترجم ألفاظا، و معنى ذلك أنه لا يمكن للمترجم أن يتجاهل البعد الثقافي في تأدية مهمته الشاقة : فعندما يقول الفرنسيين مثلا : " Prophète de malheur " فإنه يتبادر إلى أي مترجم أن هذه الصيغة تحمل في ثناياها أمور ثقافية لأن النبي عند العرب المسلمين هو " المخبر عن الغيب أو المستقبل بإلهام من الله " (2)

فلا يمكن إذن أن ننقل كلمة " Prophète " الفرنسية إلى " النبي " خاصة و أن العرب المسلمين يؤمنون بجميع الأنبياء مصداقا لقوله تعالى : " *ءامن الرسول بما أنزل إليه من ربه و المؤمنون كل آمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله لا نفرق بين أحد من رسله و قالوا سمعنا و أطعنا غفرانك ربنا و إليك المصير* " (3)

" Le messenger a cru en ce qu'on a fait descendre (4) vers lui venant de son seigneur , et aussi les croyants . Tous ont cru en Allah, en ses anges, à ses livres et en ses messagers. Et ils ont dit nous aurons entendu et obéi : Seigneur, nous implorons ton pardon. C'est à toi que sera le retour."

و عليه فإنه لا يمكن في اللغة العربية أن يجمع بين النبي (Prophète) و الشؤم (malheur). و لا يمكن استعمال ذلك لا بالمعنى المجازي و لا بالمعنى الحقيقي. ثم منذ القدم يتشاءمون من طائر أسود هو الغراب، لذا قالوا : غراب البين.

فهناك إذن تفاعل كبير بين الثقافة الترجمة ، و للمترجم دور هام في تقريب الثقافات بعضها ببعض إذ ينقل ما جادت به قرائح أمة إلى أمم أخرى، و لكن عليه أن يظل محافظا على عبقرية اللغة المنقول إليها، كأن نقول نحن العرب المسلمين " وجهها كالبدر " و البدر كما جاء في المُنجد هو القمر الممتلئ، و البدر عندنا رمز للجمال، لذلك يحلو لبعض الآباء أن

يسمى ابنته " بدرا " (belle jeune fille) و لكن البدر عند الأوروبيين يكاد أن يكون رمز للقبح فالشمس بالنسبة لهم كوكب مركزي مضيء. و ما دامت أشعتها تضيء العالم الذي نسكنه فالفرنسيون يرون أن (soleil) في هذه الحالة تكتب بحرف " S " كبير (majuscule) ثم إن الشمس تبعث بأشعتها في النهار على مناطق مختلفة من العالم. لذا يسمونها بكوكب النهار (l'astre du jour) لذلك يقول الفرنسيون :
" Elle est belle comme le jour "

فالترجمة، و هي تؤدي وظيفتها التبليغية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تتجاهل خصوصيات كل ثقافة كما بينا ذلك، غير أن مالينوفسكي (Malinovski) بالرغم من اعترافه بخصوصيات كل ثقافة، يرفض إغفال عالمية الثقافة (Universalité de la culture) المرتبطة بالطبيعة البشرية من جهة، و بحركات الهجرة من جهة أخرى. الواقع أن فكرة الانتشار الثقافي يهدف إلى وجود الاقتراض و المحاكاة اللغوية.

و يرى مالينوفسكي " أن هذا الاقتراض (l'emprunt) و هذه المحاكاة اللغوية (le calque) ناتجين عن احتكاك الناس بعضهم ببعض لأسباب عديدة و مختلفة، وهما يتمان في منطقة جغرافية معينة " (6). و من أحسن من المترجم ليدرك ذلك ؟ فالمترجم، في رأيي المتواضع، هو وحده الكفيل بتقريب الثقافات بعضها ببعض. فكم من كلمات، و كم من عبارات انتقلت من لغة إلى أخرى بفضل أعمال المترجمين.

و التداخل الغوي (les interférences linguistiques) خير دليل على ذلك .

و يكفي أن نشير إلى أندري مارتييه (André Martinet) قد لاحظ عند كل مترجم " الميل إلى الألفاظ الجديدة الأجنبية و النزوع إلى الاقتراض و المحاكاة اللغوية" (7) .

و ما نعينه في اللسانيات بالاقتراض هو أخذ الكلمة الأجنبية و إخضاعها لقواعد اللغة العربية كأن نقول : البيرقراطية و الموضة و الميكانيزمات و الرسكلة. و ما هو صائر في اللغة العربية صائر في اللغة الفرنسية التي أصبح أهلها يشكون من اجتياح اللغة الإنجليزية، اللغة الفرنسية (Anglomanie) . و قد أصبح الفرنسيون يستعملون " باي بلاين و دجوب و سندوقيتش" و غير ذلك من الكلمات التي أقلت الصفوة من المثقفين الفرنسيين.

أما المحاكاة اللغوية فتكمن في أخذ عبارة أجنبية و ترجمتها حرفيا لاستخدامها فيما بعد دونما حرج كأن يقول قائل : " فلان طلب يد فلانة " (demander sa main) بدلا من " فلان خطب فلانة " و " أدار ظهره " (tourner le dos) عوضا عن " صرف نظره عن" إلخ، و لا بد للمترجم من التفكير مليا قبل استخدام الكلمة المقترضة. فهل يعقل أن يقترض المرء من غيره ما عنده ؟ فلقد أصبحنا نسمع اليوم كلمات تردد هنا و هناك لا شيء إلا أنها أجنبية و كأنني بصاحبها يود أن يعلم من يتلقى خطابه بأنه يعرف لغة أجنبية. فالطابوهات، الروتوشات و الربورتجات و الميكانيزمات و غير ذلك من الكلمات تدل على أن

المترجم لم يدرك أن لاستخدام الدخيل أو المقترض حدود، خاصة حينما يتعلق المرء بلغتين ليستا من أرومة واحدة كالفرنسية و العربية، فالأولى هندية أوربية و الثانية سامية. و قد تعبر اللغة الفرنسية بطريقة تختلف تماما عن التعبير العربي لأنّ الترجمة كما أسلفنا ليست عملية نقل لغوي و لكنها عملية نقل ثقافي. فالفرنسيون يقولون :
(cette nouvelle me réchauffe le cœur)، أمّا العرب فيقولون :
" أثّج هذا النّبأ قلبي"، و لعل العرب بحكم أنهم كانوا يسكنون الصحراء كانوا تواقيين إلى شيء من البرودة و الثلج يحميهم من شدة الحر.
و التفاعل بين الثقافة و الترجمة قد انتقل من الكلمات و العبارات إلى أمور كان فصل فيها النحو المعيارى. و إنه يتسنى لنا بهذا الصدد أن نتحدث عن الفعل المبني للمجهول في اللغة العربية، فلا يمكن استخدام صيغة المبني للمجهول إلا عندما يكون المسند إليه (الفاعل) مجهولا. أمّا في الفرنسية، فيمكن استعمال هذه الصيغة سواء أكان المسند إليه مجهولا أم معلما مثلا :

1 - في حالة عدم معرفة المسند إليه أو عدم ذكره على الأقل :

(Ce sportif sera éliminé.)

(سيقصى هذا الرياضي)

2 - في حالة ذكر المسند إليه :

(Un enfant a été mordu par un chien)

(حرفيا : غُض طفل من طرف كلب)

و الأصح في نظر النحو المعيارى أن نقول : عض كلب طفلا. و لكن احتكاك اللغات بعضها ببعض جعلنا نلاحظ استعمال عبارتي " من طرف " و " من قبل " بكثرة في اللغة العربية. و يرجع البعض هذا الأسلوب إلى تأثر العربية بالفرنسية. و هناك عبارة أخرى و هي صيغة اتحادية وردت في كلام العرب، في القرآن الكريم بنفس المعنى و هي "من لدن". و إذا كان البعض يرجع هذا الأسلوب إلى تأثر العربية بالفرنسية إذ كثيرا ما يقال في نشرات الأنباء : استقبل مدير الصندوق النقدي العالمي من طرف وزير الاقتصاد ... فإننا نرى أن لهذا الأسلوب وجود في القرآن الكريم. و دليلنا قوله تعالى :

1- " و إنك لتلقى الكتاب من لدن حكيم عليم " (9)

2- " أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبُيُوتُ أَنْ يَقُولَ إِذْ جَاءَهُ رَبُّهُ يَا مَعْشَرَ الْبَشَرِ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا رِجَالٌ شَدِيدُوا الْأَلْبَابَ (10)

و علينا أن نلفت الانتباه إلى أن الفاعل في الآية الكريمة الثانية و هو الخالق الحكيم الخبير قد ذكر بعد وجود فعلين مبنيين للمجهول (أحكمت ... فصلت).

و هكذا يتبين لنا جليا واضحا أن الترجمة ليست بالأمر الهين . فمن يقوم بها، ينبغي أن يجعل نصب عينيه أن :

1. الكلمة متعددة المعاني : فكلمة الحاجب تعني ما يحجب العين و القذى، و تعني اليوم البواب في حين أنها كانت في العصر العباسي تعني رئيس الوزراء، و قد نجد في كتب تاريخ الأدب العربي ما يلي : " لما استولى

العباسيون على الحكم، جعلوا من أبناء الفرس الحجاب و الوزراء و الكتاب

2. اللغة ليست جامدة. فهي في تطور مستمر، فالكلمات قد تتطور معانيها. و قد نقرأ في الكتب القديمة ما يلي : " طغمة من رجال العلم " فكان يقصد بالطغمة : الجماعة، المجموعة، الكوكبة، فطغمة من رجال العلم كانت تعني كوكبة من رجال العلم. أمّا اليوم " فالطغمة لا تدل إلا على المجموعة العسكرية التي تحدث انقلابا (La junte militaire). و لا يمكن، بأي حال من الأحوال، أن نستخدمها اليوم في غير هذا المعنى. و إضافة إلى هذا، فإنه على المترجم أن :

1. يملك ناصية اللغة المنقولة (langue-source).

2. يجيد اللغة المنقول إليها (langue-cible)

3. يعلم أن لكل لغة عبقريتها.

4. يدرك أنه دائما في حاجة إلى المعلومات المعرفية (les éléments

cognitifs).

و لا بد أخيرا من أن نلفت الانتباه إلى أن الجميع شاعر بما للترجمة من أهمية. فحتى الذين لا علاقة لهم بالترجمة، يريدون أن يقحموا أنفسهم في الميدان، و الأدهى و الأمر أن الأعمال الترجمية تظل أعمالا فريدة محدودة. أفلا نستفيق من غفوتنا، و نحن نرى ما يجري من حولنا في جميع الميادين.

محمد الشريف بن دالي حسين

قسم الترجمة - جامعة الجزائر

- (1) Durieux (Christine), la traduction vecteur de dialogue entre les cultures, in Revue des lettres et de traduction, années 99, N°5, P.17

(2) المنجد

(3) سورة البقرة، الآية 285

- (4) Ce qu'on a fait descendre en révélation.

(5) نظر إلى القاموس الفرنسي

- (6) Malinowski (B), Une théorie scientifique de la culture et autres essais. Paris

- (7) Martinet (A), la linguistique, guide alphabétique, Denöel, Paris 1969

- (8) Chevalier, blanche benveniste, arrivé et peytard, grammaire Larousse du français contemporain, P/322

(9) سورة النمل، الآية : 6

(10) سورة هود، الآية الأولى